الفصل الثانى

الحضارة فريضة إسلامية

١- الإسلام والحضارة ٠

٢- القيم الحضارية في التصور الإسلامى ٠

الإسلام والحضارة

قبل الدخول في تفاصيل موضوع الحضارة بوصفها فريضة إسلامية يجدر بنا أن نلقى أولا نظرة على الوضع الراهن في العالم الإسلامى وعلى محاولات خصوم الإسلام في الربط بين الإسلام وقضية التخلف التى تسود العالم الإسلامى منذ فترة طويلة.

١- تمهيد

يعانى العالم الإسلامى في العصر الحاضر من أزمة طاحنة متعددة الجوانب. ففى الوقت الذي تتلاحق فيه التطورات العلمية والفكرية والحضارية في مناطق العالم المتقدم إذا بنا نرى التخلف بكل أبعاده المادية والمعنوية ، العلمية والدينية، الفكرية والحضارية يخيم على العالم الإسلامى.

وقد حدا ذلك ببعض خصوم الإسلام في الغرب إلى إلصاق هذا التخلف بالإسلام نفسه ؛ إذ هو في زعمهم دين يشد أتباعه إلى التخلف حيث يشكل عائقًا أمام التقدم العلمى والتطور الحضارى ، وذلك بما يشتمل عليه من تعاليم جامدة ، وتشريعات صارمة ، تحد من الانطلاق في مجالات التمدن والحضارة والرقى والتقدم.

ويستدل خصوم الإسلام على مقولتهم هذه بالواقع المشاهد في العالم الإسلامى، فهذا العالم الإسلامى كله يقع اليوم في صف العالم الثالث المتخلف ، فإذا كان الإسلام دين حضارة وتقدم لما وجدنا هذا الوضع المتخلف في عالم الإسلام ، وهكذا يرجع هذا التخلف إذن إلى الإسلام ذاته.

ومن هنا فإن المسلمين إذا أرادوا أن يتحرروا من أسر هذا التخلف فإن عليهم أن يتحرروا من الجمود الإسلامى ، وأن يأخذوا بالنموذج الغربى الذي دفع بالغرب إلى قمة التقدم والحضارة.

ويبدى - فى هذا الصدد - أحد المستشرقين المبشرين نصيحة للمسلمين لدفعهم إلى النهوض من وهدتهم بقوله : « إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييرًا جذريًا فيه ، أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة »[1].

فهذا الدين الذي ظهر في الصحراء لم يعد يستطيع مسايرة الحياة المعاصرة ، ومن هنا فلابد من طرح ما فيه من جمود حتى يمكن للمسلمين اللحاق بركب العصر.

وقد سار خلف هذا الزعم الباطل نفر من أبناء الأمة الإسلامية التابعين للغرب في فكرهم تبعية ذليلة من منطلق مركب النقص والشعور بالدونية إزاء الغرب المتفوق ، وكأن الإسلام لم يقدم للإنسانية أى إسهام في مجالات الفكر والعلم والحضارة.

وليس من غرضنا هنا أن نشغل أنفسنا بالرد على هذه المزاعم ، فالاشتغال بذلك يعد لونًا من ألوان ردود الأفعال التى لم يعد يجدر بنا أن نقف عندها طويلا ، بل ينبغى علينا أن نقتحم المشكلات المحيطة بنا بأسلوب عقلانى بعيد عن الانفعالات العاطفية ، بصرف النظر عما يقال هنا أو هناك ، من أجل البحث عن حلول سليمة لمشكلاتنا المصيرية ، وعلى رأسها قضية التخلف الحضارى الشامل الذي لا يخفى على أحد ، وذلك على الرغم من وجود قشرة حضارية يلمحها المرء هنا أو هناك.

---

(١) راجع : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ، ص٦١٢ - دار الفكر بيروت ١٩٧٣م.

إننا كمسلمين لا نستطيع أن ننكر أن واقع الأمة الإسلامية واقع متخلف ومحزن ويدمى النفس الإنسانية ، ولكن لا نستطيع أن ننكر في الوقت نفسه أن هذا الواقع المحزن منفصل عن النموذج الإسلامى الحضارى بمائة وثمانين درجة ، ولم تستطع الصحوة الإسلامية المعاصرة أن تقترب حتى اليوم بطريقة جدية من هذه القضية المصيرية الأولى. بل ظلت حتى يومنا هذا مشغولة بمحيط الدائرة ، وببعض المظاهر الشكلية والأمور الهامشية ، ومهتمة بالجزئيات دون الكليات ، واختلط لديها سلم الأولويات ، فانقلبت الضروريات هامشيات والهامشيات ضروريات ، وغابت معالم الرؤية الواضحة المتعقلة المستنيرة ، وضاعت أصوات العقلاء من رواد هذه الأمة وسط ضجيج الانفعالات العاطفية التى تتصف في بعض الأحيان بشد حدتها ، وانفلات وعيها بما يدور حولها في عالم اليوم.

فما هى الأسباب الكامنة وراء هذه الأزمة الطاحنة المتمثلة في هذا التخلف الحضارى الشامل في العالم الإسلامى؟ وما مدى مسئولية الإسلام والمسلمين عنها؟ وما الذي يمكن أن يسهم به الإسلام في صنع الحضارة والتقدم الإنسانى؟ وهل يمكن أن تدخل الحضارة في دائرة الواجبات الإسلامية الضرورية التى يمكن أن توصف بأنها فريضة إسلامية؟.

٢- الحضارة فريضة إسلامية

لقد عرضنا في الفصل الأول من هذا الكتاب بإيجاز شديد الملامح الأساسية التى تمثل الشروط الضرورية لقيام حضارة من الحضارات ، أو التى ينبغى أن تقوم عليها الحضارة بصفة عامة ، وعلينا الآن أن نتجه نحو الإسلام لنرى ما إذا كان يشتمل على هذه الشروط الضرورية أم لا؟

ولعل هناك من يعترض علينا في هذا الصدد على اعتبار أن هذا البحث ربما يفهم منه افتراض أن الإسلام لم يصنع حتى الآن حضارة ، وهذا أمر مخالف للواقع، فالإسلام قد أقام حضارة زاهرة كانت من أطول الحضارات عمرًا في التاريخ ، وقد

امتدت من أقصى الصين شرقًا إلى أقصى الأندلس غربًا ، وهذا يعنى أن الإسلام في الواقع العملى ، وليس النظرى فقط ، يشتمل على كل المقومات الأساسية لبناء الحضارة.

وهذا اعتراض له وجاهته ، ولكننا لا نبحث الآن تاريخًا مضى وانقضى ، ولكننا نبحث في مشكلة واقعية نعيشها ، ولابد من مواجهة الأمر الواقع لنرى ما إذا كانت المشكلات الحضارية بمعطياتها المعاصرة تجد لها في الإسلام حلولا أم لا وذلك من منطلق أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان.

ومن هنا فإن من الأهمية البالغة تبيان هذا الأمر بمنتهى الوضوح حتى لا يتطرق هناك لبس أو يتسرب شك إلى عقل المسلم في مدى صلاحية إسلامه للبناء الحضارى الإنسانى في أى وقت وفى أى مكان.

ونحن نزعم في هذا الصدد أن الحضارة بالمفهوم الذي ارتضيناه تعد فريضة إسلامية لا تقل أهمية عن أى فريضة أخرى في الإسلام ، وأن الخروج من هذه الوهدة التى تردت فيها الأمة الإسلامية يعد واجبًا دينيًا لا يجوز للمسلمين أن يتهاونوا في شأنه بأى حال من الأحوال.

ولعلنا بهذا المصطلح نثير مشكلة فقهية حول مصطلح الفريضة في الإسلام ، ولكننا لا نريد أن نضيع وقتًا في هذه المناقشات اللفظية ، فسيتضح لنا من خلال ما سنعرضه هنا أن استخدامنا لهذا المصطلح استخدام سليم ، فإن استعادة العزة التى كتبها الله للمؤمنين والتمكين لهم في الأرض من الأمور التى لا تقل في أهميتها عن فريضة الصلاة والصيام ، بل إن هذه العزة وهذا التمكين يمثلان الضمان لإقامة فرائض الإسلام كلها ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾[1].

---

(١) (سورة الحج : ٤١) سنتناول هذه النقطة بشىء من التفصيل عند حديثنا عن القيم الحضارية إن شاء الله.

ويكفى أن نشير هنا في البداية إلى القاعدة الأصولية المعروفة التى تقول : إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(أ) الإنسان والمسئولية الحضارية

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الإنسان هو العنصر الفعال في العملية الحضارية كلها ، كما تحدثنا أيضًا عن تكريم اللّه للإنسان وتمييزه بالعقل وتزويده بالعلم الذي به يستطيع أن يقوم بمهمة إعمار الأرض. وهذا يعنى أن عليه مسئولية حضارية. وهذه المسئولية الحضارية ذات أبعاد مختلفة وجوانب عديدة. إذ تعد بمثابة كلّ مركب من عناصر شتى ، أو بمثابة دائرة مركزها الإنسان ذاته ، ومحيطها كل ما يحيط بالإنسان من كائنات حية وغير حية ، الأمر الذي يبين لنا مدى الشمول الذى تدور فيه هذه المسئولية الحضارية.

وهناك نصوص عديدة في القرآن الكريم والسنة النبوية في حاجة إلى قراءة جديدة ، وتفسير جديد لاستخراج ما تشتمل عليه من كنوز باهرة تساعد المسلمين على الخروج من المأزق الحضارى الذي تعيشه الأمة الإسلامية منذ قرون.

ويهمنا أن نورد هنا بعض الأمثلة على ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية. فقد بين لنا النبى ﷺ جوانب أساسية مهمة فيما نطلق عليه « المسئولية الحضارية » للإنسان بقوله : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعلمه ماذا عمل به »[1].

ويلحظ المرء في هذا الحديث الشريف اشتماله على عدة عناصر أساسية لمسئولية الإنسان في الدنيا ، والتى سيقدم عنها كشف حساب يوم القيامة أمام اللّه سبحانه وتعالى ، وهذه العناصر هى : الوقت ، والعمل (المعبر عنه بالشباب

---

(١) رواه الترمذى.

الذي يعنى القدرة على العمل بصفة عامة) ، والمال ، والعلم ، ولا شك في أن هذه العناصر تمثل عوامل مهمة في العملية الحضارية ، ومن هنا يحق لنا أن نصف هذه المسئولية بأنها مسئولية حضارية.

وإذا تذكرنا ما سبق أن نقلناه عن مالك بن نبى فى حديثه عن المعادلة الحضارية التى يقول فيها : الحضارة = إنسان + تراب + وقت. وأن الفكرة الدينية تقوم بعملية المزج بين هذه العناصر الثلاثة ، فإننا هنا ـ من منطلق الحديث النبوى المشار إليه ـ يجوز لنا أن نتوسع بعض الشيء في تصور هذه المعادلة وذلك على النحو التالى :

العملية الحضارية = الإنسان (بوصفه كائنًا عاقلا مسئولا) + العلم + العمل + المال + الزمن + المكان[1].

وذلك كله في إطار الفكرة الدينية بطبيعة الحال ، والتى عبر عنها الحديث الشريف بمسئولية الإنسان عن ذلك كله أمام اللَّه يوم القيامة ، وتتسع المسئولية الحضارية للإنسان لتشمل كذلك مسئولية الإنسان عن وسائل الإدراك الحسية والعقلية ، والتى بدونها لا يستطيع الإنسان أن يبنى حضارة بأى حال من الأحوال. ومن أجل ذلك يؤكد القرآن الكريم هذه المسئولية في وضوح تام بقوله :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾[2].

ومن هنا سيقول الكافرون يوم القيامة : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۞ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ ﴾[3].

---

(١) أضفنا هنا المكان (أو التراب حسب تصور مالك بن نبى) أخذًا من الآية الكريمة : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾. (سورة هود : ٦١) فالحضارة لابد لها من إطار مكانى تتم فيه.

(٢) سورة الإسراء : ٣٦ .

(٣) سورة الملك : ١٠-١١ .

وهذا يبين لنا أن عدم استخدام وسائل الإدراك من عقل ، وحواس فيما خلقت من أجله يعد ذنبًا من الذنوب ، وينزل بالإنسان من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية ، بل إلى أسفل منها.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[1].

وليس هناك دين من الأديان رفع من شأن العقل ، وأعلى من قدره مثلما صنع القرآن ، وقد حرص الإسلام على إزالة كل العوائق التى تعترض سبيل العقل البشرى حتى يستطيع ممارسة دوره كاملا في هذا الوجود.

وقد كان مبدأ الاجتهاد في الإسلام من المبادئ التى فتحت الباب أمام العقل ليصول ويجول في مجال استنباط الأحكام الشرعية ، وإذا كان الإسلام قد أجاز للعقل هذا الحق في مجال الأحكام الشرعية فمن باب أولى يكون ذلك أمرًا حتميًا في مجال الأمور الدنيوية ، والاجتهاد في حقيقته دعوة إلى الإبداع في كل مجالات العلوم والفنون والصنائع[2].

(ب) مجالات النشاط الإنسانى

وهكذا يتضح لنا أن الإسلام قد هيأ المجال الملائم أمام الإنسان لاستخدام كل طاقته الإبداعية ، ووفر له كل الشروط الضرورية التى تساعده على القيام بمهمته الكبرى المتمثلة في خلافته للّه في الأرض ، والنهوض بمسئوليته في عمارة الأرض، وجعل اللّه الكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما مجالا لنشاط الإنسان ، فكل ما عدا الإنسان في هذا الكون مسخر لخدمة هذا الإنسان ومجال لنشاطه ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٢) سنعود إلى الحديث عن قضية الاجتهاد في موضع آخر إن شاء اللّه.

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] . كما يقول أيضًا : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[2].

وقد حدد الحق تبارك وتعالى مهمة الإنسان الحضارية في هذا الكون بقوله : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[3].

وهذا يعنى أن اللّه قد فوض الإنسان في عمارة الأرض ، والعمارة نقيض الخراب ، وتعنى تمهيد الأرض وتحويلها إلى حال يجعلها صالحة للانتفاع بها وبخيراتها.

والاستعمار في الآية الكريمة هو طلب العمارة ، فالإنسان مطلوب منه - طبقًا للمشيئة الإلهية - أن يجعل الأرض عامرة تصلح للانتفاع بها ، وأن يبحث عن أفضل السبل لتيسير الحياة فيها ، وكشف ما في الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات من أجل خير البشرية جمعاء.

وقد أعطى اللّه الإنسان من الطاقات والاستعدادات والإمكانات ما يتناسب مع ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، فهناك تناسق بين القوانين الإلهية التى تحكم الأرض وتحكم الكون كله والقوانين التى تحكم الإنسان، وما حباه اللّه به من قوى وطاقات ، حتى لا يقع التصادم بين هذه القوانين وتلك ، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون[4].

وعمارة الأرض تتحقق بالعلم الذي هو فريضة إسلامية ، وبالتقنية التى هى تطبيق للعلم ، ومن أجل ذلك تدخل تحت مفهوم الفريضة ، ولكن العمارة على هذا النحو المشار إليه ليست هى الحضارة بإطلاق ، وكذلك ليست هى العمارة بإطلاق.

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

(٣) سورة هود : ٦١ .

(٤) راجع : في ظلال القرآن لسيد قطب ، ج١ ، ص٥٩ - دار الشروق.

بل هى أحد جوانب العمارة ، ويمكن أن يطلق عليها مصطلح الحضارة الشيئية أو المادية. أما الجانب الآخر الذي به تكتمل الحضارة - أو عمارة الأرض بالتعبير القرآنى - فإنه يشمل كل القيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية.

ومن هنا فإن الحضارة في المفهوم الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية في عمارة الأرض ماديًا ومعنويًا. وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة للّه في الأرض.

وبذلك يكون الإنسان أيضًا في صلة مستمرة باللّه خالق الكون تصحح له دائمًا مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق ، فيظن أنه سيد هذا الكون مع أن دوره لا يعدو أن يكون سيدًا في هذا الكون بإرادة اللّه ، وهذا هو معنى خلافته للّه في الأرض.

* * *

القيم الحضارية في التصور الإسلامى

تمهيد

لقد اتضح مما عرضنا حتى الآن أن الإسلام بما يشتمل عليه من تعاليم قد تضمن كل ما يمكن أن يتصوره المرء من قيم حضارية ، وقد كان من الممكن أن نكتفى بذلك دون أن نخصص قسمًا مستقلا للحديث مرة ثانية عن القيم الحضارية في التصور الإسلامى.

ولكن الملاحظ أن هناك كثيرين من أبناء الأمة الإسلامية قد ضيقوا رحمة اللّه الواسعة ، وكاد فهمهم للإسلام ينحصر في مجموعة الشعائر الدينية المعروفة ، وكادت أهم القيم الحضارية تختفى من حياتهم وتصبح في واقعهم قيمًا منسية لا أثر لها ولا تأثير ، الأمر الذي جعلهم يتخلفون عن ركب التقدم الحضارى.

ومن أجل ذلك يصبح الحديث عن القيم الحضارية أمرًا ضروريًّا وليس ترفًا ، تذكيرًا بها ، وتأكيدًا على أهميتها البالغة في التحول الحضارى المأمول في حياة الأمة الإسلامية ، وليس من غرضنا بطبيعة الحال أن نقوم بحصر شامل للقيم الحضارية. ولكن يكفى أن نعرض أهم القيم في مجالات متعددة. ومن جانب آخر علينا بعد ذلك أن نطرح السؤال عن الموقف الراهن للمسلمين من حضارة العصر. ولكن قبل ذلك نود أن نتحدث عن أمرين مرتبطين بذلك ارتباطًا وثيقًا : أولهما يتعلق بأهمية القيم في الحياة الإنسانية بصفة عامة ، وثانيهما يتصل بوعود إلهية ثلاثة بالتحقق الحضارى للأمة الإسلامية. وفيما يلى تفصيل القول في ذلك :

(أ) أهمية القيم في الحياة الإنسانية

مفهوم القيم من المفاهيم الشائعة في حياتنا اليومية بوصفها معايير للسلوك الإنساني. فكثيرًا ما نتحدث عن القيم، ونشكو في أحيان كثيرة من انهيار القيم، ونعبر عن الحاجة الملحة للإنسان المعاصر إلى الإحساس بالقيم، بعد أن انتشرت السطحية التي نأخذ بها الأمور، والتي أدت بنا إلى عدم إدراك القيم الحقيقية للأشياء والأشخاص والخلط بينه وبين القيم النسبية أو الوسيلية ويرتبط بضآلة الإحساس بالقيم ظواهر سلبية كثيرة مثل التخلف والانحلال واليأس والتشاؤم، وفي المقابل يرتبط بازدياد الإحساس بالقيم مفاهيم التقدم والتفاؤل والنظام والترابط.

وليست القيم خاصة بالجانب الأخلاقي فقط. فهناك مجالات كثيرة مثل قيم الحق والخير والجمال، كما أن هناك قيمًا دينية تتداخل مع هذه المجموعات من القيم التي تحكم حياة الإنسان أو التي ينبغي أن تحكم حياة الإنسان.

والإسلام يهتم بكل القيم التي ترتقي بالإنسان، وتهذب من أخلاقه، وتسمو بعواطفه، وترقق مشاعره، وتنمي إحساسه بالجمال. ويضع الإسلام القيم الأخلاقية بوجه خاص في مرتبة عليا وفي قمة سلم القيم. ويجعلها حاكمة لغيرها من القيم. ومن هنا يقول النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وقانون الأخلاق في الإسلام يرسم للإنسان منهجًا قويمًا لسلوكه في جميع مجالات نشاطاته وعلاقاته في شتى النواحي الفردية والاجتماعية، بل وفي علاقته بالكون كله. فليس هناك أي وجه من وجوه النشاط الإنساني لم يخضع لتقنين الأخلاق الإسلامية. وإذا كانت الأخلاق في الإسلام تعتمد على الوحي الإلهي فليس معنى ذلك أنها تتصادم أو تتناقض مع مقررات العقل الإنساني. فهذا أمر غير وارد إطلاقًا، كما أن الضمير الحي اليقظ لا يصدر منه إلا ما يتفق مع ما يأمر به قانون الأخلاق في الإسلام.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب المفرد.

والأمر الذي لا جدال فيه أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في هذه الحياة بدون قيم تحكم سلوكه على المستوى الفردى والاجتماعى ، بل وتحكم سلوكه إزاء الكائنات جميعًا. وهذا يؤكد أن الإنسان يعد كائنًا أخلاقيًا لديه بالفطرة ضمير يلزمه بالسلوك الأخلاقى ، باستثناء من فسدت فطرتهم وصموا آذانهم وعقولهم عن سماع صوت الضمير. فهؤلاء من الشواذ الذين لا يمثلون النوع الإنسانى ، ولا يؤثر وجودهم في جعلنا نفقد ثقتنا في الإنسان الذي خلقه اللّه في أحسن تقويم.

ويدخل في حسن التقويم بطبيعة الحال الفطرة السليمة النقية التى فطر اللّه الناس عليها ، وليس التكوين البدنى فقط -كما قد يتبادر إلى الأذهان - ، لأن الإسلام حين يتحدث عن الإنسان فإنه يتحدث عنه بوصفه كائنًا متكاملا من الجسم والروح والعقل والوجدان.

وعلى أساس من هذه الفطرة الإنسانية النقية يبنى الإسلام تعاليمه ليوقظ فيها كل عوامل الخير والحق والجمال ، ويزيل منها ما قد يكون قد علق بها من شوائب حالت بينها وبين الرؤية الصحيحة ، الأمر الذي يجعل صفحتها واضحة جلية تنطبع فيها بلا عوائق كل القيم الدينية والأخلاقية والعقلية والجمالية.

(ب) الوعود الإلهية بالتحقق الحضارى

نود هنا أن نلفت الأنظار إلى حقيقة مهمة تتمثل في وعود إلهية ثلاثة للمؤمنين ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وهى وعود يؤدى تحققها إلى الوصول بالأمة الإسلامية إلى الدرجة العليا في التقدم الحضارى. وقد وردت هذه الوعود الثلاثة في سورة النور في قوله تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾[1].

وغير خاف على أحد أن هذه الوعود الإلهية الثلاثة غير متحققة بالنسبة

---

(١) سورة النور: ٥٥ .

للمسلمين في عالم اليوم ، بل ومنذ عدة قرون ، ولكنها كانت متحققة بصفة عامة في القرون الأولى للإسلام وعلى مدى حوالى ثمانية قرون رغم ما شابها في بعض الأحيان من بعض السلبيات. ولكن السبب في عدم تحققها واضح إذا رجعنا إلى صدر الآية. فهى وعود للمؤمنين الذين يعملون الصالحات. «والإيمان ليس بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل» وقد جاء فى ذلك كثير من الآيات والأحاديث التى تؤكد ذلك.

ويتضح من ذلك أن هذه الوعود لا تتحقق للمسلمين إلا باستيفاء شرطين أساسيين هما : الإيمان والعمل الصالح. فالإيمان هو الأساس والعمل الصالح هو البناء. وهنا يمكننا أن نستعير عبارة لحجة الإسلام الغزالى قالها في مناسبة الربط بين العقل والدين : «لن يغنى أساس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس»[1] ، وكلاهما : الإيمان والعمل الصالح يرتبط بالآخر ارتباطًا لا ينفصم، ويشكلان وجهين لعملة واحدة.

ويفهم البعض العمل الصالح بأنه مجرد أداء الشعائر الدينية المعروفة ، ويظن هؤلاء أنهم بذلك قد أدوا ما عليهم ، واستوفوا الشروط المطلوبة ، وهذا خطأ فاحش لأنه يعنى التقوى السلبية ، وهذا ليس المقصود من العبادات في الإسلام. فالشعائر الدينية أو العبادات بجانب أنها تعبير عن الخضوع للّه وحده فإنها من ناحية أخرى تهيئ الإنسان لكى يكون عضوًا صالحًا في مجتمعه يفعل الخير لنفسه ولمجتمعه استجابة لأمر اللّه تعالى بإصلاح الأرض ومنع الفساد فيها. وبالتالى يكون إعمار الأرض وصنع الحضارة فيها عبادة لأنه استجابة لأمر اللّه تعالى في قوله : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2].

ومن هنا يمكن القول بأن العمل الصالح هو كل عمل يقوم به الإنسان في هذه

---

(١) معارج القدس للغزالى ، ص٥٩ .

(٢) سورة هود : ٦١ .

الحياة - دينيًا كان هذا العمل أو دنيويًا - ما دام قد قصد به المرء وجه اللّه ونفع الناس ودفع الأذى عنهم. فالعمل الصالح مفهوم عام وشامل لخيرى الدنيا والآخرة. والإسلام -كما هو معروف - دين للحياة بكل أبعادها لا فرق في ذلك بين أمر دينى بحت وأمر دنيوى صرف. فهذه التفرقة غريبة عن طبيعة الإسلام. وهذا يعنى أن العمل الصالح مفهوم يقصد منه تحقيق القيم الدينية والأخلاقية بالمعنى الشامل الذي يمكن أن نعبر عنه بالقيم الدافعة إلى تقدم الإنسان ورقيه وتقدم المجتمع وازدهاره ، وهذا معناه تحقيق القيم المؤدية إلى بناء الحضارة. وإذا تم ذلك تحققت بالتالى الوعود الإلهية الثلاثة المشار إليها وهى :

١- التمكين في الأرض والسيادة عليها ، وهو المعنى المقصود بالاستخلاف في الأرض. مع ملاحظة أن الاستخلاف هنا نقيض الاستعلاء ، لأن الاستخلاف يتضمن الإرادة الإلهية في جعل الإنسان خليفة في الأرض. وإذا كان الأمر كذلك فإن على المستخلف أن يتخلق بأخلاق من استخلفه ، ويلتزم بتوجيهاته وأوامره.

٢- أما الوعد الثانى فإنه التمكين للدين. والتمكين للدين لا يأتى عفوًا ولكنه يأتى نتيجة طبيعية للتمكين في الأرض الذي يتحقق عن طريق الاستخلاف المشار إليه. وهذا ما أشارت إليه آية أخرى في سورة الحج.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾(١).

فالتمكين في الأرض هنا -كما هو واضح- سبيل لإقامة شعائر الدين التى هى في جملتها قد شرعت لمصلحة الإنسان ومن أجل خيره وسعادته في دنياه وأخراه.

٣- والاستخلاف في الأرض والتمكين للدين يؤديان في النهاية إلى نشر الأمن

---

(١) سورة الحج : ٤١ .

والسلام والاستقرار. وهذا هو الوعد الثالث: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[1]. وهذا يعنى أن المسلمين من شأنهم أن يكونوا عنصر أمن واستقرار في هذا العالم، وأن قوتهم ستصب في النهاية في مصلحة البشر جميعًا.

وهذا إجمال نود أن نفصل القول فيه من خلال حديثنا عن أهم القيم الحضارية الدافعة إلى تقدم المجتمع من وجهة النظر الإسلامية.

(جـ) نماذج من القيم الحضارية

ليس من غرضنا - كما سبق أن أشرنا - أن نتحدث عن كل القيم الحضارية في التصور الإسلامي - وما أكثرها - وليس من غرضنا أيضًا أن نتحدث عن الإنجازات الحضارية التى قدمتها الحضارة الإسلامية للبشرية في كل مجالات العلوم والفنون والآداب، فذلك حديث له مجال آخر، وإنما نريد أن نشير هنا إلى بعض نماذج من القيم الحضارية التى أكد عليها الإسلام، والتى تعد قيمًا أساسية لبناء حضارة ثابتة الأركان شامخة البنيان، تؤتى أكلها تقدمًا ورقيا، وتقدم عطاءها الحضارى للبشرية جمعاء سلامًا وأمنًا واستقرارًا، تلك القيم التى لم تعد حاضرة في وعى جماهير الأمة بالقدر الكافى لتحويلها إلى التزام أخلاقى وسلوك عملى في حياة الأمة الإسلامية.

وفيما يلى بعض هذه النماذج من القيم الحضارية الدافعة إلى تقدم المجتمع ورقيه في جميع المجالات:

١- التفكير

لقد سبق أن تحدثنا عن العقل الإنسانى بوصفه أجل النعم التى أنعم الله بها على الإنسان، وأشرنا إلى مدى اهتمام الإسلام به، وإزالة العقبات من طريقه حتى يؤدى وظيفته على النحو الذي أراده الله، وبينا أن عدم استخدام وسائل

---

(١) سورة النور: ٥٥.

الإدراك الحسية والعقلية يعد ذنبًا من الذنوب. ولسنا هنا في حاجة إلى تكرار ذلك مرة أخرى ، ولكننا نريد أن نتحدث عن أهم وظائف العقل الإنساني التي تتمثل في التفكير. والتفكير من أهم القيم التي حث عليها القرآن الكريم في العديد من الآيات الكريمة. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]. وقوله : ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] ، وأكثر التعبيرات التي وردت في هذا الصدد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

ومن خلال النظر في الأساليب القرآنية الواردة في هذا الشأن نجد القرآن الكريم يحفز الناس على التفكير ، ويأمرهم به في سياقات متنوعة. وعادة يأتي ذلك عقب ذكر العديد من آيات الله الكونية أو الإنسانية ، أو الحديث عما يتضمنه القرآن الكريم من حكم بالغة ، أو بعد الإشارة إلى بعض الأمثال أو القصص ، أو حتى بعد التنبيه إلى ما بين الزوجين من المودة والرحمة ، أو غير ذلك من أمور تتطلب من الإنسان أن يشحذ ذهنه وعقله لفهمها وإدراك ما تنطوي عليه من سنن وأسرار إلهية.

وقد كان الأستاذ عباس العقاد محقًّا تمامًا عندما أطلق على أحد مؤلفاته عنوان «التفكير فريضة إسلامية». وكان الفيلسوف العظيم ابن رشد على صواب كذلك عندما اعتبر التفكير أو ما أطلق عليه النظر العقلي في الموجودات واجبًا شرعيًا. ويعزز ذلك ما ذهبنا إليه من اعتبار الحضارة فريضة إسلامية ، لأن الحضارة لا تتحقق إلا بالتفكير واستخدام الإنسان لكل ملكاته الفكرية والإدراكية.

وعلى الرغم من اهتمام الإسلام بقيمة التفكير على هذا النحو الذي رأينا فإن نظم التعليم في عالمنا الإسلامي ، بالإضافة إلى انتشار الجهل والأمية على نطاق

---

(١) سورة البقرة : ٢١٩ .

(٢) سورة الأنعام : ٥٠ .

(٣) سورة الرعد : ٣ .

واسع ، قد نجحت في تعليم أبناء المسلمين الخوف من التفكير ، وصبهم في قوالب جامدة تربطهم بحرفية المكتوب ، الأمر الذي أغلق أمامهم فرص الإبداع والابتكار. وأصبح الفكر في اللسان الشعبي مرادفًا للغم والهم.

ونحن مطالبون بأن نفكر ، وأن يقض التفكير مضاجعنا ، ويقلقنا في سبيل البحث عن مخرج لأمتنا من أزمتها الحضارية الراهنة ، كما أننا اليوم أحوج ما نكون إلى غرس قيمة التفكير في نفوس أبنائنا وبناتنا ، وتعليمهم كيف يمارسون التفكير في حياتهم وفي كل أمورهم. ففي ذلك حماية لهم من الانزلاق في مهاوي التطرف في الفكر أو في السلوك أو في فهم الدين ، أو الانخداع بشعارات زائفة ومقولات براقة يطلقها أصحابها في كثير من الأحيان باسم الدين ، ويقصدون من ورائها إلغاء دور العقل تمامًا وتعطيل المسيرة الحضارية للأمة ، وبذلك يحققون ما يريدون من أهداف خفية وأطماع ذاتية.

إن التاريخ يعلمنا أن المسلمين عندما توقف تفكيرهم وانتشرت بينهم المقولات الخطأ مثل : «لم يترك الأول للآخر شيئًا». و«ليس في الإمكان أبدع مما كان» ، وراجت في أوساطهم الخرافات والأوهام ، توقفت حضارتهم وتوقف إبداعهم ، واكتفوا بثقافة المحفوظات وترديد ما قاله السابقون. وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى توقف عطائهم الحضاري وإخلاء الميدان لغيرهم من الأمم لتحمل راية التقدم.

ومن هنا فإن تقدم الآخرين وتخلف المسلمين الحضاري في القرون الأخيرة يرجع بوجه عام إلى أن الآخرين قد مارسوا التفكير واستخدموا عقولهم جيدًا بينما توقف المسلمون عن التفكير. والقرآن الكريم يقول في هذا الصدد : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1].

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

فهذا التسخير للسماوات والأرض وما بينهما يعد حقلا واسعًا ومجالا لا حدود له لكل من يستخدم عقله وفكره كما جاء في ختام الآية : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. فكل من يفكر سيصل لا محالة. أما الذين لا يفكرون فلن يصلوا إلى شئ. وهذا هو ما حدث بالفعل : فقد فكر الآخرون ووصلوا إلى ما وصلوا إليه من ثورات صناعية واتصالية ومعلوماتية وتكنولوجية. وقنع المسلمون بموقف المتفرج والمستهلك لما ينتجه الآخرون.

وقد آن الأوان ليتغير وضع المسلمين ، وأن يعودوا إلى طريق العقل ، وطريق العلم والتفكير والإبداع ، ليستعيدوا مسيرة الأسلاف العظام في العطاء العلمى والحضارى المتجدد بلا حدود.

٢- العلم

لقد أشرنا في حديثنا عن « مفاتيح الحضارة » إلى نعمة العلم التى زود اللّه بها الإنسان ليكون قادرًا على إنجاز مهمته الحضارية في هذا الوجود ، كما نبهنا إلى ذلك في مواضع أخرى من هذا الكتاب ، الأمر الذي يبين لنا أن العلم في الإسلام ليس ترفًا أو أمرًا هامشيًا ، وإنما هو فريضة لا تقل أهمية عن أى فريضة إسلامية أخرى. وقد أكد ذلك النبى ﷺ في حديثه المشهور « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »[١].

واهتمام القرآن الكريم بالعلم لا يحتاج إلى تأكيد. ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يوصى النبى ﷺ بأن يدعو ربه الاستزادة من العلم : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[٢]. وفى ذلك حفز لنا على السير على منواله والاقتداء به. والعلم - كما هو معروف - نقيض الجهل. فإذا كان الإسلام يعتبر العلم فريضة فإن الجهل يعد رذيلة ونقيصة. ومن هنا وجدنا النبى ﷺ يأمر بالإفراج عن كل أسير من أسرى

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) سورة طه : ١١٤ .

غزوة بدر إذا قام بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، وذلك بدلا من الفدية المالية التى كان المسلمون حينذاك في أشد الحاجة إليها. ولكن العلم لا يمكن أن يعوض بالمال.

وإذا كان ذلك قد تم منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان فإنه كان جديرًا بالمسلمين اليوم - من منطلق تعاليم دينهم - ألا يكون بينهم أمى واحد. ولكن الواقع المؤسف يقول بأن أكثر من نصف سكان العالم الإسلامى أميون[1]. والأمية معناها الجهل وانتشار الخرافات والأوهام ، كما تعنى سوقًا رائجة للدجل والشعوذات. وهذا معناه المزيد من التخلف والجمود والانغلاق.

إن الحديث عن العلم يعنى الحديث عن التفكير العلمى ، ويعنى ضرورة الالتزام بالمناهج العلمية. ولكن الأمر المؤسف أنه لا يزال يشيع في أوساط جماهير أمتنا الإسلامية اللجوء إلى تفسير الأحداث بغير أسبابها الحقيقية ، وتصور أسباب وهمية لا صلة لها بالعلم ولا بالحقيقة. وهذا أمر حذر منه النبى ﷺ. فقد تصادف أن حدث كسوف للشمس عندما توفى إبراهيم ابن النبى ﷺ ، فربط بعض الصحابة بين هذه الظاهرة الطبيعية وبين حزن النبى ﷺ على فقد ولده ، وقالوا بحسن نية - بطبيعة الحال - : لقد كسفت الشمس مشاركة للنبى ﷺ في الحزن على موت إبراهيم ، ولكن النبى ﷺ رفض هذا التفسير بشدة قائلا : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان ولا يخسفان لموت أحد ولا لحياة أحد »[2].

إن تفسير الأحداث بغير أسبابها الحقيقية واللجوء إلى الأساليب غير العلمية

---

(١) في شهر فبراير ٢٠٠١ أعلن الأمين العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) أن نسبة الأمية في دول العالم الإسلامى تفوق ٤٦٪ من مجموع السكان. ونقل عنه قوله : إن القضاء على الأمية في بلدان العالم الإسلامى أمر صعب وشاق ويحتاج إلى جهود كبيرة وتمويل ضخم وكفاءات متعددة لتحقيق هذا الهدف. (جريدة صوت الأزهر ٢٠٠١/٢/١٦ ، كما نشرت الخبر بقية الصحف المصرية).

(٢) رواه الإمام البخارى.

وغير العقلية في العلاج واتخاذ القرارات الشخصية أو ما شابه ذلك يعد تخلفًا عقليًا وردة جاهلية ، وانتكاسة فكرية ، فضلا عن أنه أمر مخالف للدين جملة وتفصيلا.

إن تراثنا الإسلامى يشتمل على عناصر إيجابية تحض على العلم والتمسك به مهما تكلف المرء من مشاق. ومن ذلك - على سبيل المثال - العبارة المعروفة « العلم من المهد إلى اللحد » وأيضًا : « اطلبوا العلم ولو في الصين » أى ولو كان في أبعد مكان في الدنيا ، وأيضًا لو كان في يد من لا يدينون بدينكم ، فالعلم لا وطن له ولا دين له ، إنه ملك للإنسانية جمعاء. والحضارة الإنسانية أخذ وعطاء ، ولا توجد أمة عريقة في التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من التراث الإنسانى.

وقد احتفل أسلافنا العظام بالعلم في جميع مجالاته ، وشجعوا على تحصيله بكل السبل ، وأوقف الكثيرون من أهل الخير أوقافًا لا حصر لها لدعم كل جهد يبذل في طلب العلم وتعليمه ونشره على أوسع نطاق. وقد أثمرت هذه الجهود ثمارها الرائعة وأدت إلى قيام حضارة إسلامية عريقة قدمت عطاءها الثرى للإنسانية كلها. ولا تزال عشرات الآلاف ، بل مئات الآلاف من المخطوطات العربية الإسلامية في شتى مجالات العلوم والفنون منتشرة في مكتبات العالم الإسلامى وفى مكتبات أوروبا - لا تزال شاهد صدق على مدى اهتمام المسلمين بالعلم الذي بدونه لا تقوم حضارة ولا يتحقق تقدم.

٣- الوقت

يعد الوقت قيمة من القيم الحضارية الأساسية التى نبه إليها الإسلام ، وحض على الالتزام بها ، وحسن التصرف فيها. وقد أقسم اللّه بالوقت في العديد من آيات القرآن الكريم ليبين لنا مدى الأهمية البالغة لهذه القيمة في حياة الإنسان. وقد جاء القسم في هذه الآيات بالفجر وبالضحى وبالعصر وبالليل وبالنهار ، وكلها

تمثل أجزاء من الوقت أو الزمن. والله لا يقسم بشيء دون أن تكون هناك حكمة بالغة وراء ذلك يراد تعليمها للناس.

وفي أمثالنا الشائعة التي ورثناها عن الأسلاف نقول: «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك» وكذلك: «الوقت من ذهب». وهذا يعني ضرورة شغل أوقاتنا بالعمل المفيد المنتج، أو - بالتعبير القرآني - بالعمل الصالح بمعناه الواسع الشامل، حتى نسهم في دفع عجلة الحياة والارتقاء بها. وقد سبق أن أشرنا إلى أن مالك بن نبي قد نبه إلى أهمية الوقت بوصفه أحد المكونات الأساسية للحضارة. وعلى الرغم من كل هذا الاهتمام بالوقت فإن هذه القيمة قد كادت أن تصبح في حياتنا اليومية من القيم المنسية التي لا تحظى بما تستحقه من أهمية كبيرة وحاسمة في حياة كل فرد بصفة خاصة، وفي حياة الأمم والشعوب بصفة عامة.

ومن أجل التأكيد على أهمية الوقت يخبرنا النبي الكريم ﷺ بأن الوقت يدخل ضمن المسئوليات الكبيرة التي سوف يسأل عنها الإنسان يوم القيامة. وفي ذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن عمله ماذا عمل به»[1].

وعمر الإنسان الذي سوف يسأل عنه هو مجموع أوقاته، وهو حياته كلها في هذه الدنيا. وقد عبر عن ذلك أمير الشعراء أحمد شوقي بقوله:

دقات قلب المرء قائلة له ∴ إن الحياة دقائق وثوان

فكل لحظة تمر على الإنسان من عمره القصير دون أن يستفيد منها أو يفيد

---

(١) رواه البزار والطبراني. ورواه الترمذي في كتاب صفة القيامة مع تغيير طفيف في بعض الألفاظ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

غيره تعد لحظة ضائعة. والزمن الذي يمضى لن يعود مرة ثانية ، ولن ينفع ندم المرء على عدم استغلال أوقاته الاستغلال الأمثل. فلا أحد يستطيع أن يعيد عقارب ساعة الزمن إلى الوراء.

ويروى عن ابن مسعود ﷺ قوله : « ما ندمت على شيء مثل ندمى على يوم غربت شمسه ، نقص فيه أجلى ولم يزد فيه عملى ».

ونحن في حياتنا اليومية نضيّع الكثير من أوقاتنا ، أو بمعنى أدق نقتلها ونبددها ونهدرها فيما لا يفيد ، مع سبق الإصرار والترصد ، كما لو أن أوقات فراغنا عدو لابد أن نقتله ونتخلص منه. وحقيقة الأمر أن الإنسان يستطيع أن يجعل أوقات فراغه عنصرًا إيجابيا ، كما أن في استطاعته كذلك أن يجعل منها عنصرًا سلبيا. فالفراغ من ناحية يعد نعمة كبرى من النعم التى أنعم اللّه بها على الإنسان. ومن هنا فإنه لا يجوز أن يسيء استخدام هذه النعمة.

ومن أجل ذلك يقول النبى ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[1] فالذى لا يستعملهما فيما ينبغى ، وفيما خلقا من أجله فقد ظلم نفسه. وهكذا فإن المرء إذا لم يقدّر وقت فراغه حق قدره ، ويشغله بما يفيد ، فإنه ينقلب إلى نقمة. وهذا هو الوجه الآخر للفراغ. ومن هذا الجانب وجدنا الشاعر القديم يعتبر الفراغ بابًا من أبواب الفساد والإفساد حين يقول :

إن الشباب والفراغ والجده ∴ مفسدة للمرء أى مفسده[2].

ومن المناظر المألوفة في عالمنا الإسلامى أن يرى المرء الجموع الغفيرة من الناس القادرين على العمل تكتظ بهم المقاهى ويضيعون أوقاتهم فيما لا طائل من

---

(١) رواه البخارى والترمذى وابن ماجه (فيض القدير جـ٦ ، ص٢٨٨).

(٢) راجع الدراسة القيمة حول « الوقت في حياة المسلم » للدكتور يوسف القرضاوى ، فقد حشد فيها معلومات ممتازة عن قيمة الوقت في الإسلام (دار الصحوة ١٩٨٤م).

ورائه. وقد عبر جمال الدين القاسمي[1] عن حسرته على أوقات الناس المهدرة دون وعى بقيمتها بقوله : كم أتمنى أن يكون الوقت مما يباع لأشترى من هؤلاء جميعًا أوقاتهم لأنفقها فيما يفيد.

وهناك أمر مهم في هذا الصدد ينبغى أن ندركه جيدًا ، وهو ضرورة التفرقة الواضحة بين وقت الجد ووقت اللهو ، وعدم الخلط بينهما ، فلكل وقته. والإسلام في الوقت الذي يدعو فيه إلى العمل الصالح واستغلال الوقت فيما يفيد فإنه يدعو أيضًا إلى الترويح المقبول عن النفس استعدادًا لاستئناف العمل من جديد ، كما جاء في بعض الأحاديث النبوية : « روّحوا القلوب ساعة فساعة »[2] ، ولكن الإسلام يرفض ملء الوقت كله باللهو والكسل والقعود عن العمل المنتج الذي يفيد صاحبه ويفيد مجتمعه.

والإسلام يعوّل كثيرًا على ضرورة الوعى بالزمن ، وأهمية الاستغلال الأمثل للوقت في كل مجالات الحياة ، إذ بدون ذلك لا تقوم حضارة ، ولا يتصور أن يكون هناك أى شكل من أشكال التقدم في حياة الإنسان. ومسئولية الإنسان الحضارية في هذا الوجود تحتم عليه أن يكون أمينًا في تحمل هذه المسئولية ليحقق ذاته ويؤكد هويته الإنسانية من ناحية ، وليكون جديرًا في الوقت نفسه بشرف خلافته للّه في الأرض من أجل إعمارها بالخير في جميع المجالات من ناحية أخرى.

٤- العمل

من القيم التى ترتبط ارتباطًا عضويا بالوقت قيمة العمل. فالوقت هو الوعاء الذي يمارس فيه الإنسان العمل. ولا يمكن فصل هاتين القيمتين عن بعضهما. فالوقت بلا عمل فراغ ، والعمل لا يمكن أن يتم إلا إذا كان هناك وقت لإنجازه. وإذا قلنا إن الوقت يشكل عنصرًا أساسيًا في تكوين الحضارة فإن المقصود بذلك هو

---

(١) أحد علماء دمشق في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

(٢) رواه أبو داود فى المراسيل.

الوقت المرتبط بالعمل الجاد المثمر ، والعمل لا يكون جادًا ومثمرًا إلا إذا كان قائمًا على علم وفهم وإدراك. وكما أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الوقت والعمل فإن هناك ارتباطًا لا يقل أهمية بين العلم والعمل ، بمعنى أن العمل المنتج يعد تنفيذاً لتخطيط علمي وتطبيقًا عمليًا لما حصل عليه الإنسان من علم ومعرفة. وبذلك يكون العلم والعمل وجهين لعملة واحدة.

ولعله من نافلة القول التأكيد على مدى اهتمام الإسلام بقيمة العمل. فالعمل لون من ألوان العبادة لله سبحانه وتعالى بالمعنى العام للعبادة. والعمل المقصود ليس أي عمل ، وإنما هو العمل الصالح الذي سبق أن بينا المراد منه عند حديثنا عن الوعود الإلهية الثلاثة. ولكننا نضيف هنا أمرين مهمين أكد عليهما النبي ﷺ تأكيدًا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض.

أولهما : إتقان العمل والإخلاص فيه. وفي ذلك يقول الحديث الشريف : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه »[1]. كما يقول أيضًا : « من غشنا فليس منا »[2].

ثانيهما : استمرارية العمل حتى آخر لحظة في حياة الإنسان ، وحتى عندما توشك الدنيا على الفناء. وفي ذلك يقول الحديث الشريف : « إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل »[3].

والعمل يعني بذل الجهد للوصول إلى الهدف المقصود. أما الذي لا يبذل أي جهد ولا يريد أن يقوم بأي عمل مع القدرة عليه فإنه يعد طفيليًا على الحياة ، بل يمكن القول بأنه غير جدير بنعمة الحياة. ومن هنا يقول القرآن الكريم :

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة.

(٢) رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود.

(٣) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده من حديث أنس بن مالك.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ ﴾[1] . فمن مشى أكل ، ومن كان قادرًا على المشى ولم يمش كان جديرًا ألا يأكل[2].

وقد روى أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى بعض الناس قابعين في المسجد بعد الصلاة بدعوى التوكل على اللَّه ، القادر على أن يرزقهم دون أن يبذلوا أى جهد (وهذه كلمة حق يراد بها باطل) ، فعلاهم بدرته وقال كلمته الشهيرة التى تعبر أصدق تعبير عن موقف الإسلام من العمل : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة ، وأن اللَّه تعالى يقول : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾[3] ومن الأدعية المأثورة عن النبى ﷺ أنه كان يستعيذ باللَّه من العجز والكسل.

وهذا يعنى أن الإسلام في تأكيده على قيمة العمل يؤكد في الوقت نفسه على رفض التواكل بكل أشكاله وصوره. فالحياة حركة ونشاط والأخذ بالأسباب سنة من سنن اللَّه في الكون ، والتواكل مضاد لذلك كله. وعندما ساد هذا التواكل المرذول مجتمعاتنا الإسلامية تخلفت عن ركب الحضارة والتقدم.

وقد آن الأوان لعود الوعى بمفهوم التوكل بمعناه الصحيح الذي يعنى العمل والأخذ بالأسباب الموصلة إلى الهدف ، والاعتماد بعد ذلك على اللَّه ، والثقة في نصره. وهذا الفهم الصحيح للتوكل هو الذي مكن المسلمين في السابق من بناء حضارتهم الشامخة. أما التواكل والقعود عن العمل فهو الذي كان سببًا في تخلفهم الحضارى الذي لا يزال العالم الإسلامى يعانى منه حتى اليوم.

---

(١) سورة الملك : ١٥ .

(٢) معالم الثقافة الإسلامية. د/ عبدالكريم عثمان ، ص١٥٤ ومابعدها - بيروت ١٩٧٢ .

(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

٥- حسن المعاملة

من أكثر العبارات شيوعًا في حياتنا عبارة «الدين المعاملة» وهى كلمة حق لو طبقت بصدق في دنيا الواقع. فالدين ليس تقوى سلبية تقتصر على صاحبها، وإنما التقوى الحقيقية تعد ترجمة عملية للدين في التعامل مع الآخرين. سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بأى وسيلة أخرى من وسائل التعامل.

ومن هنا نجد القرآن الكريم يحثنا على أن يكون حديثنا مع الآخرين بالقول الحسن: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[١]، وهذا يعنى اختيار الألفاظ التى نتعامل بها مع الآخرين والتى ينطبق عليها وصف الحسن. وهذا أمر لا صلة له بالغلظة أو الفظاظة أو الجفاء في التعامل مع الغير، كما يحدث ذلك في كثير من الأحيان. ومن أجل ذلك أكد القرآن الكريم على أن منهج الدعوة إلى اللّه ينبغى أن يقوم على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٢].

ويحثنا النبى ﷺ على البشاشة في وجه الآخرين لما لذلك من تأثير عظيم في غرس الألفة بين الناس. ولذلك يقول «تبسمك في وجه أخيك صدقة»[٣]، ويقول أيضًا: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٤]. أى بوجه بشوش.

ويحرص الإسلام على عدم جرح شعور الآخرين بالقول أو بالفعل. ويصل التعليم النبوى في هذا الصدد إلى القمة في رقة المعاملة حين يقول لنا: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»[٥]. لأنه قد يقع في ظنه

---

(١) سورة البقرة: ٨٣.

(٢) سورة النحل: ١٢٥.

(٣) رواه الترمذى.

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه في البر والصلة.

(٥) رواه البخارى ومسلم (فيض القدير، جـ١، ص ٤٣٥).

أنهما يتحدثان عنه. ومن أجل ذلك ينبغي إما إشراكه في الحديث، أو الحديث مع الآخر بصوت مسموع تفاديًا لجرح شعور الثالث.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن «ول ديورانت» يعتبر المدنية رقة المعاملة. وهذه تعاليم الإسلام تؤكد أن حسن المعاملة يمثل حجر الزاوية في أخلاق الإسلام وقيمه منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان.

والإسلام إذ يرفض الظلم في كل أشكاله وصوره ويرد الاعتداء بمثله ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ** ﴾[1]، فإنه من ناحية أخرى يسعى إلى اقتلاع النزعة العدوانية من نفوس الآخرين بتلقينهم درسًا في حسن المعاملة، ويلفت الأنظار إلى أن ذلك ربما يكون له أثره الفعال في انقلاب العدو إلى صديق. وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾[2].

ولكن القرآن الكريم يذكرنا أيضًا أن هذه المرتبة العالية في التعامل لا يصل إليها إلا الأقلون: ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾[3].

ولا يترك الإسلام فرصة للتعامل الحضاري مع الآخرين إلا ويغتنمها بهدف الوصول إلى غرس الثقة المتبادلة والألفة والمودة بين الناس من أجل الوصول إلى مجتمع إنساني تتحقق فيه معاني الأخوة الإنسانية ويسوده العدل والسلام.

ومن أجل ذلك يحض الإسلام باستمرار على حسن الخلق في التعامل مع الآخرين، ويروى أن رجلا سأل النبي ﷺ: ما الدين يا رسول الله؟ فأجابه الرسول بقوله: الدين حسن الخلق. وكرر الرجل السؤال عدة مرات وكانت الإجابة في كل مرة هي أن الدين حسن الخلق[4].

---

(١) سورة البقرة: ١٩٤.

(٢) سورة فصلت: ٣٤.

(٣) سورة فصلت ٣٥.

(٤) من توجيهات الإسلام للشيخ محمود شلتوت، ص ٣٠٠، ٣٠١، طبعة الأزهر ١٩٥٩م.

ومن المعروف أن أخلاق الناس لا تظهر إلا في التعامل مع الغير. ومن هنا لا نستطيع أن نصف إنسانًا بأنه ذو خلق طيب أو خلق سيئ إلا عن طريق التعامل مع الغير. ومن خلال هذا التعامل يتضح لنا الوصف الصحيح لخلق هذا الشخص أو ذاك. وأصحاب الأخلاق الفاضلة يبشرهم النبى ﷺ بأنهم سيكونون أقرب الناس إليه يوم القيامة وذلك في قوله : « إن أقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا »[1].

ومعلوم أنه لا توجد حضارة بدون أخلاق فاضلة. والأخلاق الفاضلة هى التى تحمى الأمم من التحلل والفساد والفناء. وقد كان أمير الشعراء أحمد شوقى على حق حين قال :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ∴ فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولا يقتصر حسن المعاملة على تعامل المسلمين بعضهم مع بعض ، وإنما ينسحب ذلك على التعامل مع غير المسلمين من كل الأجناس والشعوب ما دام هؤلاء لا يريدون بالمسلمين شرًا. والقاعدة القرآنية في ذلك واضحة كل الوضوح في قوله تعالى :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[2].

فالناس جميعًا قد خلقهم الله من نفس واحدة[3] تجمعهم رابطة الأخوة الإنسانية بصرف النظر عن أعراقهم ومعتقداتهم وأشكالهم وألوانهم. والحضارة الحقيقية هى التى يتحقق فيها معنى الإنسانية في التعامل بين البشر جميعًا.

---

(١) رواه الترمذى في سننه - كتاب البر والصلة.

(٢) سورة الممتحنة : ٨ .

(٣) سورة النساء : الآية١ ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾.

٦- حقوق الإنسان

إذا نظرنا بصفة عامة إلى قضية حقوق الإنسان في التاريخ الإنساني والأساس الذي ترتكز عليه هذه الحقوق في التصورات العامة نجد أنها تدور بين أن تكون مبنية على أساس الحق الطبيعي· أو التعاليم الدينية أو الأخلاقية· أو على أساس وضعي·

وقد تطور مفهوم حقوق الإنسان في الفكر الإنساني على مدى قرون عديدة من خلال صراع طويل داخل الجماعات الإنسانية ، وانتهى الأمر إلى التصور الحديث لهذا المفهوم ، والذي يرتكز بصفة خاصة على الأسس والمبادئ التي نادى بها التنوير الأوروبي·

وفي خضم المناقشات التي تدور حول حقوق الإنسان حتى يومنا هذا ترتفع بين حين وآخر بعض الأصوات التي تتهم الإسلام بأنه دين لا يعرف حقوقًا للإنسان· ويتم - بقصد أو بغير قصد - تجاهل عطاء الإسلام في قضية حقوق الإنسان تجاهلا تامًا· ووضعًا للأمور في نصابها وتصحيحًا للتصورات الخاطئة في هذا الصدد نتناول هذه القضية فيما يلي من حيث الأسس التي تنبني عليها في التصور الإسلامي·

إن من المعروف لكل دارس للشريعة الإسلامية أن مقاصدها منذ كانت تتمثل في قيام مصالح الناس في الدين والدنيا معًا ، وقد روعي في كل حكم من أحكامها إما حفظ شيء من الضروريات الخمسة وهي : (الدين والنفس والعقل والنسل والمال) والتي تعد أسس العمران المرعية في كل ملة ، وإما حفظ شيء من الحاجيات كأنواع المعاملات ، وإما حفظ شيء من التحسينات التي ترجع إلى مكارم الأخلاق ، وإما تكميل نوع من هذه الأنواع بما يعين على تحققه[١]·

---

(١) راجع الموافقات للشاطبي (مرجع سابق)·

وحفظ هذه الأنواع الثلاثة المشار إليها يعنى حمايتها من أى اعتداء عليها. وهذه الحماية حق لكل فرد ، فهى إذن تمثل حقوقًا للإنسان بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. وترجع حقوق الإنسان في الإسلام بصفة عامة إلى حقين أساسيين وهما : حق الإنسان في المساواة ، وحقه في الحرية. وكل حقوق الإنسان الأخرى تنبثق من هذين الحقين.

ويؤسس القرآن الكريم حق الإنسان في المساواة على قاعدتين أساسيتين هما: وحدة الأصل البشرى ، وشمول الكرامة الإنسانية لكل بنى آدم.

أما وحدة الأصل البشرى فإن القرآن الكريم قد أكد عليها تأكيدًا واضحًا لا يقبل التأويل. حين أشار إلى أن الناس جميعًا قد خلقوا من نفس واحدة. فلا مجال في الإسلام لامتيازات طبيعية لفئات أو طبقات أو أجناس أو شعوب في مقابل شعوب أخرى.

وقد أكدت السنة النبوية هذه الحقيقة كما جاء في خطبة حجة الوداع المشهورة : « أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى »(١).

ومن الملاحظ أن الإسلام يعتمد معيارًا للتفاضل بين الأفراد يختلف عن المعايير المتعارف عليها بين الناس. ألا وهو معيار الثراء الداخلى للإنسان ، وما يرتبط به من موقف روحى يحفز الإنسان إلى العمل المثمر وبذل الجهد في سبيل إقرار الحق والعدل والسلام. وهذا المعيار - بتعبير القرآن الكريم والسنة النبوية - يتمثل في التقوى ، التى تعنى العمل الصالح الذي يشمل كل عمل يقوم به الإنسان في هذه الحياة - دينيًا كان هذا العمل أم دنيويًا - ما دام قد قصد به وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

أما القاعدة الثانية للمساواة فهى شمول الكرامة الإنسانية لكل البشر. وقد منح اللّه هذه الكرامة لكل الناس بلا استثناء لتكون سياجًا منيعًا من الحصانة والحماية لكل فرد من أفراد الإنسان ، لا فرق بين غنى وفقير وحاكم ومحكوم. فالجميع أمام اللّه وأمام القانون وفى الحقوق العامة سواء.

ومن المعلوم أن حق المساواة في المجتمع الإسلامى مكفول للمسلمين ولغير المسلمين على السواء. وهنا تسرى القاعدة القانونية الإسلامية : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا »[1].

أما المبدأ الثانى الذي ترتكز عليه حقوق الإنسان في الإسلام فهو مبدأ الحرية. فقد جعل اللّه الإنسان كائنًا مكلفًا ومسئولا عن عمارة الأرض وبناء الحضارة الإنسانية.

وليست هناك مسئولية دون حرية ، حتى في قضية الإيمان والكفر التى جعلها اللّه مرتبطة بمشيئة الإنسان ، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في وضوح تام. وتشمل الحرية المقصودة كل الحريات الإنسانية دينية كانت أو سياسية أو فكرية أو مدنية. ولم تكن مقولة عمر بن الخطاب ﷺ : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا »[2] ، تعبيرًا عن موقف عارض ، وإنما كانت ترسيخًا لتصور مبدئى ثابت في الإسلام.

وإذا كانت حقوق الإنسان لا تراعى بصورة كافية في العديد من مناطق العالم الإسلامى ، الأمر الذي يعطى لخصوم الإسلام الفرصة لاتهامه بخلوه من حقوق الإنسان ، فإن الإسلام ليس مسئولا عن الممارسات الخطأ حتى وإن كانت ترتكب باسمه. ومن يريد أن يتعرف على تعاليم الإسلام الحقيقية فليبحث عنها في

---

(١) رواه النسائى في سننه - كتاب : تحريم الدم.

(٢) راجع : على الطنطاوى : أخبار عمر ، ص ١٨٢ ومابعدها. دمشق ١٩٥٩م.

مصادره الأصلية وليس في سلوكيات منحرفة أو تفسيرات باطلة يرفضها الإسلام رفضًا تامًّا.

٧- الجمال

الإسلام دين يحب الجمال ويدعو إليه في كل شيء. والنبي ﷺ يقول: «إن اللَّه تعالى جميل يحب الجمال»[١]. والقرآن الكريم في العديد من آياته يلفت الأنظار إلى ما في الكون من تناسق وإبداع وإتقان، وما يتضمنه ذلك من جمال وبهجة وسرور للناظرين. والإنسان مطبوع على حب الجمال، سواء كان هذا الجمال في الأشياء أو في الأشخاص.

وإذا كان اللَّه يحب الجمال - كما جاء في الحديث المشار إليه - فإن الإنسان الذى خلقه اللَّه في أحسن تقويم، من شأنه أيضًا أن يحب الجمال، مع الفارق الكبير الذي يتمثل في أن اللَّه هو خالق الجمال، وخالق حب الجمال في الإنسان.

ويعرف الجمال بأنه صفة تلحظ في الأشياء وتبعث في النفس سرورًا أو رضا. أو كما يقول ابن سيناء: «جمال كل شيء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له»، أو كما ينبغي أن يكون. وهذا يعنى التناسق التام والنظام الكامل. وقد اكتمل ذلك في خلق الكون كله الذي خلقه اللَّه فقدره تقديرًا وأبدع صنعه، وأحسن كل شيء خلقه: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾[٢]. ويلفت القرآن الكريم أنظارنا وعقولنا إلى هذا التناسق في خلق السماء بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[٣]. وجعل لنا الحدائق بهجة لأنظارنا وسرورًا لأنفسنا: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[٤].

---

(١) رواه مسلم والترمذى عن عبد اللَّه بن عمر.

(٢) سورة الملك: ٣.

(٣) سورة ق: ٦.

(٤) سورة النمل: ٦٠.

وتتكرر في القرآن الكريم أوصاف الجمال في خلق السماء وتزيينها لتكون بهجة للناظرين ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾[2] ، ويستنكر القرآن من يحرم زينة الله بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[3] ، والقرآن الكريم يدعونا لأن نتخذ زينتنا عند الخروج إلى المسجد حتى نكون في أبهى صورة وفي أجمل حال : ﴿ يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[4].

والجمال كما يكون في خلق الكون وفي خلق الإنسان يكون أيضًا في الأنعام - كما يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[5]. ويكون كذلك في مجال الأخلاق : في الصفح على سبيل المثال : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾[6]. وفي الصبر : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾[7]. وغيرهما من صفات أخلاقية ، ويكون أيضًا في الأفعال : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[8]. كما يكون الجمال في الأصوات : فقد امتدح النبي عليه الصلاة والسلام صوت أبي موسى الأشعري - وقد سمعه يتغنى بالقرآن وكان جميل الصوت - فقال له « لقد أوتيت مزمارًا من مزامير داود »[9]. كما كان النبي ﷺ يختار أجمل الأصوات للأذان وامتدح بلالا في الأذان واصفًا إياه بأنه : « أندى صوتًا »[10].

---

(١) سورة الملك : ٥ .
(٢) سورة الحجر : ١٦ .
(٣) سورة الأعراف : ٣٢ .
(٤) سورة الأعراف : ٣١ .
(٥) سورة النحل : ٦ .
(٦) سورة الحجر : ٨٥ .
(٧) سورة المعارج : ٥ .
(٨) سورة الأحزاب : ٤٩ .
(٩) رواه البخاري في صحيحه.
(١٠) رواه أبو داود في سننه.

والأمر الجدير بالذكر هنا أيضًا أن أوصاف الجنة في القرآن الكريم تمثل صورًا جمالية رائعة تجعل القلوب تهفو إليها والنفوس تتحرق شوقًا إلى نعيمها. ومن ذلك كله يتضح لنا أننا نتجنى على الإسلام حين نجعل منه دينا ينفر من الجمال ويدعو إلى الكآبة والتجهم، وحين نجعل منه دينًا عدوًا للعواطف والوجدانيات، وعدوا للتعبير عن هذه العواطف بقصيدة جميلة، أو أغنية ذات كلمات عفيفة، أو لحن موسيقى يرقق المشاعر، أو رسم جميل يبرز آيات الله في الكون.

لماذا يغيب عنا أن أبا بكر ﷺ قد دخل على عائشة رضى الله عنها في يوم عيد فوجد عندها جاريتين تغنيان فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت النبى ﷺ؟ فرد عليه النبى الكريم ﷺ قائلا: «يا أبا بكر، إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا؟»[1].

ولماذا ننسى أيضًا ما رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها زفت جارية يتيمة كانت في حجرها لرجل من الأنصار. فدخل رسول الله ولم يسمع الغناء. فقال يا عائشة: ألا بعثت معها من يغنى، فإن الأنصار قوم يحبون الغناء (أو يحبون الغزل). فلو بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم ∴ فحيونا نحييكم

فلولا الذهب الأحمر ∴ ما حلت بواديكم

ولولا الحنطة السمراء ∴ ما سمنت عذاريكم[2]

والإسلام عندما يدعو إلى الجمال فإنه من ناحية أخرى يرفض القبح بجميع أشكاله. ولا يمكن لدين هذا موقفه أن يصادر مشاعر الناس وعواطفهم في حب الجمال. فالجمال إذا ساد في كل شيء، في أقوالنا وأفعالنا، فإن النتيجة ستكون حياة جميلة. والحياة الجميلة تدفع إلى كل ما هو جميل. والمجتمع الذي يسود فيه الجمال يسود فيه الذوق الجميل. والفن الجميل، والفعل الجميل،

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه، جـ١ ص ٦١٢ طبعة عيسى الحلبى.

(٢) رواه البخارى وابن ماجة والحاكم في المستدرك.

والأدب الجميل ، والسلوك الجميل ، أما الذي نفسه بغير جمال فإنه لا يرى في الوجود شيئًا جميلا - كما عبر عن ذلك بصدق إيليا أبو ماضى -[1].

وهذا يعنى أن الجمال إحساس داخلى ينعكس بدوره على ما يحيط بالإنسان فيرى كل شيء جميلا. فالجمال إذن ليس في الشكل الظاهرى فقط وإنما هو في المقام الأول في أعماق النفس الإنسانية. ويرتبط الإحساس بالجمال بالتفاؤل والإقبال على الحياة ، وحب الناس والاتجاه إلى عمل الخير. ومن أجل ذلك كان حرص الإسلام على تربية الذوق الجمالى لدى الإنسان المسلم.

ولم يكن ذكر الصور الجمالية البديعة في القرآن الكريم وصفًا دقيقًا وحقيقيا للكون بما فيه من كائنات ومن فيه من البشر إلا ترسيخًا لقيمة الجمال في النفوس. وتربية للتذوق الجمالى لدى الأفراد والجماعات ، إذ من شأن ذلك أن يرقق المشاعر ويرهف الإحساس ويعمق الإدراك. وليس هناك من شك في أن ذلك كله ينعكس بصورة إيجابية على سلوك الإنسان في الحياة ، ويجعله سلوكًا حضاريًا بكل معنى الكلمة.

٨- الحفاظ على البيئة

من المعروف أن البيئة على وجه العموم تشمل كل ما يحيط بالإنسان من مكونات حية أو غير حية. وقد كثر الحديث في العصر الحاضر عن البيئة ومشكلاتها. وهناك جهود كبيرة تبذل في العديد من بلاد العالم وفى المؤسسات الدولية للحد من تلوث البيئة وتقليل الأخطار التى يتعرض لها البشر بسبب التلوث الذي يهدد صحة الناس ، ويؤدى إلى تدمير البيئة.

والإسلام في معالجته لقضايا الإنسان لم يغفل هذا الجانب لأن الإسلام

---

(١) وذلك في قصيدته الشهيرة « فلسفة الحياة » والتى مطلعها :

أيهذا الشاكى وما بك داء ∴ كيف تغدو إذا غدوت عليلا.

بطبيعته دين للحياة بكل أبعادها ، بالإضافة إلى أن البيئة تقع في إطار مسئولية الإنسان عن هذا الكون. ومن هنا اهتم الإسلام بها اهتمامًا فائقًا لأنه يريد للناس أن يعيشوا في بيئة نظيفة ليكونوا قادرين على القيام بأعباء مسئولياتهم على خير وجه. ولكن الإسلام حين يتحدث عن قضايا البيئة فإنه لا يقصر ذلك على التلوث المادى للبيئة في صوره المتعددة ، وإنما يقصد أيضًا التلوث الأخلاقى. فمعالجة الإسلام لهذه القضية يتم بشكل متكامل ، كما هو الشأن في معالجته لكل قضايا الإنسان.

وبداية نجد أن الإسلام قد جعل الحفاظ على البيئة جزءًا أساسيًا من العقيدة. وهذا ما نقرؤه في الحديث النبوى الشريف : «الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذي عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان»[1]. ويشمل الأذى المشار إليه كل أنواع الإيذاء التى تلوث البيئة وتضر بمصالح الناس وصحتهم وأذواقهم ومشاعرهم. فتكدس القمامة في الشوارع أذى يضر بالناس ، والكلمة التى تخدش الحياء أذى يلوث البيئة الأخلاقية ويخدش حياء الناس ويفسد أذواقهم ، ومكافحة هذا الأذى بكل صوره يعد من الواجبات الدينية التى يكتمل بها إيمان المؤمن. وليست أمرًا هامشيًا يمكن التغاضى عنه.

ويقرر الإسلام بصفة خاصة أن الناس شركاء في أمور عدة من بينها الماء الذي يعد شريان الحياة. وما دام الماء شركة بين الناس فلا يجوز لأى من الشركاء فردًا أو جماعة أن يصدر عنه أى تصرف يتسبب في إلحاق الأذى بالماء لأن ذلك من شأنه أن يجر وراءه الإضرار بصحة الناس الذين يشربون من هذا الماء. ومن هنا ينهى الإسلام عن التبول أو التبرز في المياه الجارية ، وينسحب ذلك على إلقاء نفايات المصانع وما شاكلها في المياه الجارية.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة عن أبى هريرة. (فيض القدير ، جـ٣ ، ص ١٨٥).

وكذلك الشأن في الهواء. فالنهى أيضًا ينسحب على كل ما من شأنه أن يلوث الهواء ويجعله ضارًا بالصحة. فعوادم السيارات ودخان المصانع وغيرها من ملوثات للهواء مرفوضة إسلاميًا، لأن الهواء والماء لا يملكه فرد أو جماعة تفعل بهما ما تشاء، وإنما هما ملك عام لكل الناس في كل زمان ومكان.

ويتصل بتلويث البيئة إشغال الطريق بأى شكل من الأشكال، سواء كان ذلك بإشغاله بمخلفات البناء أو القمامة أو مخلفات المستشفيات أو غير ذلك من صور الإشغال التى تعوق حركة الناس وتضر بصحتهم، أو حتى بإشغال الطريق بالجلوس فيه مما يسبب عنتًا ومشقة للآخرين. وفى ذلك يقول الرسول الكريم ﷺ: «إياكم والجلوس في الطرقات. قالوا: يا رسول الله: ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها قال: فإذا أبيتم إلا المجلس فاعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حقه؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»[1].

ويحذر النبى ﷺ من تلويث الطريق بفضلات الإنسان - أو تلويث الأماكن التى يتردد عليها الناس لقضاء مصالحهم ومعايشهم أو يستظلون فيها - ويصف هذا التلويث بأبشع الأوصاف، إذ يعده من الملاعن كما جاء ذلك في قوله: «اتقوا الملاعن الثلاث»[2].

وهناك في حياتنا اليومية أمور تعوّد الناس عليها على الرغم من أنها تعد من ملوثات البيئة التى تسبب إزعاجًا للآخرين مثل الضوضاء المفرطة، ورفع الصوت عند الحديث، وإساءة استخدام مكبرات الصوت، والتدخين، والمبالغة في رفع

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب اللباس والزينة.

(٢) رواه أبوداود وابن ماجه وغيرهما، ونص الحديث: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل» (فيض القدير، جـ١، ص ١٣٦).

أصوات الأغاني المذاعة من الإذاعة أو التليفزيون أو المسجلات في البيوت أو الشوارع أو السيارات.

وهذه أمور تدخل في إطار الإضرار بالناس المنهى عنه طبقًا للقاعدة النبوية : « لا ضرر ولا ضرار»[1].

إن الإسلام في حرصه على الحفاظ على البيئة فإنما يؤكد أنه دين جاء لخير الإنسان وسعادته في دنياه وأخراه. وإذا كان الحفاظ على البيئة يعد اليوم سمة من سمات الحضارة الحديثة فإنه جدير بالمسلمين أن يعتزوا كل الاعتزاز بما اشتملت عليه تعاليم دينهم من حماية للبيئة وحفاظ عليها ، ولكن الأمر لا يجوز أن يقف عند حد الاعتزاز، بل يجب على المسلمين أن يترجموا هذه التعاليم إلى ممارسة حياتية يومية ليبرهنوا بسلوكهم الحضارى على انتمائهم الحقيقى للإسلام.

٩- الرفق بالحيوان

من منطلق خلافة الإنسان في الأرض وتحمله المسئولية عن هذا الكون بما فيه ومن فيه تأتى مسئولية الإنسان عن الحيوان. وللإسلام في هذا الصدد مواقف ثابتة في قضايا الرفق بالحيوان وأسلوب التعامل معه.

فالحيوان كائن حى ، وقد خلقه اللّه الذي خلق الإنسان وخلق كل شيء في هذا الكون. والإسلام له قيمه وتعاليمه الراسخة في تعامل الإنسان مع الحيوان ومع الجماد أيضًا. فلا يجوز إساءة استخدام أى شيء من مخلوقات اللّه.

ويعلمنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن الإساءة للحيوان والقسوة عليه أو تعذيبه بأى شكل من الأشكال يُحبط أعمال الإنسان ويعرضه لغضب اللّه وعقابه ، وأن الرفق بالحيوان والتعامل معه من منطلق الرحمة يجعل الإنسان جديرًا برضا

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في الموطأ.

اللَّه وغفرانه. فقد روى أن النبى ﷺ قال : « عُذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض »[1].

وفى المقابل يُخبرنا النبى عليه الصلاة والسلام بما ينتظر المتعاملين مع الحيوان بالرفق والرحمة من الثواب العظيم والأجر الجزيل. وذلك في قوله : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى. فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان منى ، فنزل البئر وملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر اللَّه له فغفر له »[2].

وقد أثار ذلك دهشة الصحابة الذين استمعوا إلى هذا الحديث فتساءلوا قائلين: هل لنا في البهائم أجر؟ فقال : « فى كل كبد رطبة أجر» ، ويعنى بذلك كل كائن حى. وقد كان ذلك منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان قبل أن تعرف البشرية جمعيات الرفق بالحيوان في العصر الحديث. وفى ذلك إشارة واضحة إلى التغيير الحضارى الكبير الذي أحدثه الإسلام في وجدان الإنسان المسلم تجاه الحياة والأحياء.

وتمتد الرحمة بالحيوان إلى طريقة ذبحه ، ويوصى النبى ﷺ بتخفيف الألم على الحيوان عند ذبحه بقوله : « إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته »[3]. وقد رأى عمر بن الخطاب ﷺ رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال له : « ويلك قدها إلى الموت قودًا جميلا ».

من كل ما تقدم يتضح لنا مدى حرص الإسلام على التعامل الرحيم مع

---

(١) رواه البخارى في صحيحه عن عبد اللَّه بن عمر.

(٢) رواه البخارى ومسلم ومالك عن أبى هريرة.

(٣) رواه الإمام مسلم.

الحيوان. وهذا ليس بالأمر الغريب على الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين. والرحمة من القيم التى لا تتجزأ. فكما أن الرحمة مطلوبة في التعامل بين الناس فهى كذلك أكثر إلحاحًا في التعامل مع الحيوان ، لأنه لا يستطيع أن يفصح عما بداخله. والنبى ﷺ يبشر الراحمين خيرًا وينذر قساة القلوب بسوء المصير. وفى ذلك يقول : « الراحمون يرحمهم الرحمن »[1] ، « إنه لا يُرحَم من لا يَرحم »[2]. فالجزاء من جنس العمل.

والإسلام يجعل قيمة الرحمة على رأس منظومة الأخلاق الإسلامية. ومن هنا وجدنا اهتمام القرآن الكريم بها اهتمامًا بالغًا لم تحظ به قيمة أخرى. فقد وردت بمشتقاتها المختلفة في القرآن الكريم ما يقرب من ثلاثمائة وأربعين مرة بالإضافة إلى البسملة في أوائل السور القرآنية والتى تشتمل على وصف اللَّه سبحانه بالرحمن الرحيم.

وهذا الاهتمام الكبير يعنى ضرورة التخلق بخلق الرحمة في جميع تعاملاتنا سواء كان ذلك مع أنفسنا أو مع غيرنا من البشر والحيوان ، وعلينا أن نربى أولانا على ذلك ونغرس في نفوسهم قيمة الرحمة بكل أبعادها. ولنضع أمام أعيننا التعليم النبوى الشريف : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[3].

١٠- النظام

النظام نقيض الفوضى والاضطراب والعشوائية والارتجال. وإذا انعدم النظام وسادت الفوضى في مجتمع من المجتمعات اختل كل شىء فيه ، ولم تعد هناك حدود واضحة بين الحقوق والواجبات. ولا بين ما يجوز وما لا يجوز.

ولا يمكن أن يتصور المرء حضارة من الحضارات بدون نظام يحدد الإطار

---

(١) رواه أبو داود في سننه - كتاب : الأدب.

(٢) رواه البخارى في صحيحه - كتاب : الأدب.

(٣) رواه الترمذى في سننه في كتاب البر والصلة.

العام الذي يجوز لكل فرد في المجتمع أن يمارس فيه حياته وحريته دون إضرار بالآخرين. فالإنسان كائن اجتماعي يعيش مع الآخرين وبالآخرين. ومن أجل ذلك شرعت القوانين المنظمة للحقوق والواجبات في المجتمعات البشرية لتشكل مع القواعد الأخلاقية الفطرية والقيم الدينية صمام الأمان والاستقرار في المجتمع. والهدف من ذلك كله هو مصلحة الناس ومساعدتهم على التعاون فيما بينهم من أجل خير مجتمعهم وتقدمه وازدهاره.

وقد عنى الإسلام عناية فائقة بهذا الجانب المهم المنظم للحياة الإنسانية من منطلق أنه دين للحياة بأبعادها المختلفة، ومن هنا جاء بأحكام وتشريعات منظمة لحياة الإنسان في صلته باللّه أولا ثم في صلته بسائر أفراد البشر في مختلف شئونهم. وذلك حتى لا يُترَك الناس للأهواء والمصالح الذاتية تتحكم فيهم وتسيطر على تصرفاتهم وسلوكهم، مما يهدد كيان المجتمع وأمنه واستقراره.

ومن هنا حرص الإسلام كل الحرص على أن يغرس في نفوس المسلمين حب النظام، ويدربهم عليه حتى يصير سلوكًا يوميًا لهم. وإن نظرة متأنية إلى بعض العبادات في الإسلام نجدها ترسم لنا صورة مثلى في النظام. فالصلاة - على سبيل المثال - لها أوقات محددة لأدائها ومعروفة بكل دقة، ولها نظام مخصوص لا يجوز الخروج عنه أو الزيادة أو النقصان فيه. وإذا وقف الإمام في محرابه ليؤم الناس في الصلاة سمعناه يقول: «سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة.. إن اللّه لا ينظر إلى الصف الأعوج». وهذا النظام المحكم في الصلاة وقوفًا وركوعًا وسجودًا وجلوسًا. إلخ خمس مرات يوميًا هو درس في الانضباط في الحياة. وكذلك الشأن في بقية العبادات.

وكما يكون الانضباط والنظام في العبادات المعروفة يكون في ميدان الجهاد. وقد رأينا ما حدث للمسلمين في غزوة أحد عندما لم يلتزم الرماة بأماكنهم التي حددها لهم النبي ﷺ القائد، وظنوا أن المعركة قد حسمت بالنصر للمسلمين،

فتركوا أماكنهم وانهمكوا في جمع الغنائم. وعندئذ استغل الأعداء الفرصة وطوقوا المسلمين وانتهت المعركة بهزيمة جيش المسلمين. وكان ذلك أيضًا درسًا بليغًا في ضرورة التقيد بالنظام وعدم الخروج عنه بأى حال من الأحوال. فلكل موقعة الذي لا يجوز له أن يحيد عنه ، لأن الخلل في أحد الجوانب من شأنه أن يؤدى إلى حدوث خلل في الجوانب الأخرى.

وقد شملت النظم والتشريعات الإسلامية جميع جوانب الحياة : فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة والأخلاق وغيرها. وليس من غرضنا هنا أن نفصل القول في ذلك كله. فهذا له مجال آخر.

ولكن الأمر الذي نريد أن نؤكد عليه في هذا الصدد هو أن الإسلام لم يجعل من هذه النظم - كما قد يتبادر إلى الأذهان - قيدًا على حرية الإنسان في تطوير الحياة وتجديدها. فالإسلام في الوقت الذي وضع فيه أحكامًا في أمور لا تستقل العقول بإدراكها ، ولا تختلف باختلاف الزمان أو المكان أو الأشخاص ، فوّض العقل الإنسان في الوقت نفسه فيما وراء ذلك ، وأتاح له فرصة الاجتهاد في تقرير ما تقضى به المصلحة في حدود أصول الإسلام وثوابته.

وبذلك حفظ للعقل الإنسانى كرامته ، وصانه في الوقت نفسه من الاضطراب والفوضى[1]. فالأمر يدور إذن حول الثوابت والمتغيرات. فالثوابت ليست محلا للاجتهاد أو إعادة النظر أو التغيير والتبديل ، أما المتغيرات فإنها ميدان فسيح لنظر العقل واجتهاده وصولا إلى ما فيه مصلحة المجتمع[2].

ولكن التدهور الحضارى الذي أصاب الأمة الإسلامية منذ فترة طويلة كان له بطبيعة الحال تأثيره الضار على حياة الناس في المجتمع الإسلامى. وقد تمثل ذلك في تخلخل التزام المسلمين بالقيم الحضارية ومن بينها قيمة النظام التى

---

(١) من توجيهات الإسلام للشيخ محمود شلتوت ، ص ٦٧ - مطبوعات الأزهر ١٩٥٩ .

(٢) سنعود للحديث عن ذلك إن شاء الله في الفصل التالى.

تكاد أن تكون قد اختفت من حياتهم. وقد أدى ذلك إلى أن أصبحت حياة كثير من المسلمين خليطًا عجيبًا من الفوضى على المستويات الفكرية والدينية والعلمية والحياتية.

إن النظام هو الحياة الصحيحة بكل ما تعنيه من تخطيط سليم وتحضر ورقى في الفكر وفى السلوك. أما الفوضى فإنها تعنى التخلف والانفلات من كل القيم والنظم. وهذا أمر مضاد لكل تعاليم الإسلام ولكل القيم الحضارية المعتبرة.

د - موقف المسلمين من حضارة العصر

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: إذا كان هذا هو موقف الإسلام من الحضارة فما بال المسلمين قد تخلفوا عن الركب الحضارى، وارتضوا لأنفسهم منذ قرون أن يكونوا في مؤخرة الركب ولا يشاركون في صنع الحضارة، وإن كانوا يستخدمون منتجاتها؟. إن عدم مشاركة المسلمين في صنع الحضارة يعنى أنهم قد تخلوا عن مسئوليتهم في عمارة الأرض وتركوها لغيرهم، وهى تلك المهمة التى أكدها القرآن الكريم.

إن الحضارة المعاصرة إن باعتنا منتجاتها فلا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها، وكل المعانى التى لا تلمسها الأنامل، فعملية التحضر عملية منبعثة من الداخل أساسًا، وهذا يعنى أن هناك شيئًا ذاتيًا أساسيًا يجب أن يقود عملية التحضر.

ولهذا يمكن أن نرى بيننا فردًا من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة، ولكنه لا يسلك سلوكًا حضاريًا، ومثل هذا الشخص لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر، رغم الأكوام الهائلة التى يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة.

فماذا يريد المسلمون؟

هل ينتظر المسلمون انهيار الحضارة المعاصرة حتى يقيموا حضارتهم على أنقاضها؟ إذا كان الأمر كذلك فسيطول بهم الانتظار.

أم يرى المسلمون أن واجبهم في المشاركة في صنع الحضارة المعاصرة يتمثل في الاهتمام بالجانب الروحى الذي أهملته الحضارة الحديثة حتى يقيم المسلمون بذلك التوازن الذي اختل في الحضارة الحديثة؟.

إن هذه مهمة جزئية لا تمثل ما يريده الإسلام من أبنائه ، فالإسلام لا يفصل الجانب المادى عن الجانب الروحى. والنموذج الذي ينبغى أن نسعى إليه ونقدمه لأمتنا ولغيرنا لابد أن يكون جامعًا للأمرين ، وإلا كنا خائنين لرسالتنا ، ونرتضى لأنفسنا أن نكون لقمة سائغة في فم القوى العظمى.

إننا في عالم اليوم في عصر لم يعد يعترف إلا بالقوة. وقوة اليوم لم تعد هى القوة المادية فقط أو قوة الإيمان فحسب ، وإنما القوة الحقيقية هى التى تجمع بين الأمرين ، وهذا هو جوهر تعاليم الإسلام. فلا يجوز لنا إذن أن نتخلى عن فريضة العلم ، وما يرتبط به من تقنية بجوار قيامنا بفرائض الروح والقلب.

ومن هنا فإنه لا مناص لنا من أن نتمكن من حضارة العصر بكل منجزاتها المادية ، وتطوراتها العلمية والتقنية ، في الوقت الذي نراجع فيه مواقفنا من الإسلام وتعاليمه ، لنزيل الغبش الذي غطى على تعاليم الإسلام وقيمه الحضارية فحجب عنا الرؤية السليمة الواضحة لهذه التعاليم وتلك القيم على مدى القرون الماضية.

وهذا يتطلب تحولا جذريًا في العقلية الإسلامية لتنسجم مع تعاليم الإسلام تصحيحًا للأوضاع الغريبة ، والتقاليد البالية ، والقصور العقلى ، والفهم السقيم الذي يريد أن يشد تعاليم الإسلام لتنسجم مع ما درجنا عليه من عقلية متخلفة. فالعيب إذن فينا نحن المسلمين وليس في الإسلام. فالإسلام سيظل شامخًا بتعاليمه. إذا اشرأبت أعناق المسلمين وقلوبهم وعقولهم نحوه بصدق جذبهم إلى أعلى ، وإذا أرادوا أن يخضعوه إلى فهمهم السقيم تخلى عنهم ، وتركهم يسقطون في وهدة التخلف.

إن الأمر الذي يدعو للأسى والحسرة أننا كلما أدركنا ما نعانيه من قصور وعجز وتخلف في المجال الحضارى في عالم اليوم ، لجأنا إلى حيلة دفاعية نبرر بها موقفنا ، فنخدع أنفسنا بأنه إذا كان قد فاتنا اللحاق بركب الحضارة الحديثة المؤسسة على العلم والتكنولوجيا فإننا ننعم بإيمان دينى لا ينعم بمثله بناة تلك الحضارة.

وهذا ادعاء ينقض نفسه بنفسه ، لأننا لو كنا حقا قد تشربنا الدين الذي نؤمن به ، لوجب علينا بحكم هذا الدين نفسه أن نسبق الدنيا في إقامة الحضارة القائمة على كشوف العلم وما ينبنى عليها ، لأن الإسلام دين يحض على العلم بأى معنى فهمنا كلمة « علم » ، فإذا كان العلم الذي بنيت عليه حضارة عصرنا هو - أساسًا - العلم بقوانين الطبيعة ، فذلك ما دعانا إليه القرآن الكريم كلما دعانا إلى تدبر خلق اللَّه ، فخلق اللَّه هو هذا الكون بشتى كائناته وظواهره ، وتدبر هذه الكائنات والظواهر لا يعنى النظر إليها نظرة المتفرج ، بل يعنى تعمقها والوصول إلى درجة العلم بالأسس التى تحكم سلوكها والقوانين التى تنظم مسيرتها ، وذلك من صميم النشاط العلمى وما ينطوى عليه.

وإذا أمرنا القرآن الكريم بأن ننظر إلى الإبل كيف خلقت أو إلى السحب كيف تتجمع لتنزل ماءها إلى أرضنا فتحييها بما تنبته من نبات ، فإن الهدف من ذلك ينتهى بنا إلى درجة العلم بالحيوان أو العلم بالنبات ، وينطبق ذلك على كل كائن أو ظاهرة مما يجب علينا بحكم الدين أن نتناوله بالنظر[1].

ولكننا للأسف لا نفعل شيئًا من ذلك ، ونعتقد أن مجرد قراءة القرآن وحفظه يكفيان لاكتمال إيماننا بالدين ، فأين ذلك من قول اللَّه تعالى : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟** ﴾[2].

---

(١) زكى نجيب محمود - صحيفة الأهرام ٥/٦/٩٠ .

(٢) سورة محمد : ٢٤ .

إن كثيرًا من آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الظواهر الكونية والكائنات المختلفة تنتهى بالدعوة إلى حث القوى الفكرية لدى الإنسان لتقوم بأداء وظيفتها في هذا الصدد ، ويأتى التعبير عن ذلك في صور عقلية متعددة مثل الدعوة إلى التفكير والتعقل والتفقه والاعتبار والتدبر والتبصر والتذكر والعلم وغيرها من صور أخرى مشابهة.

لقد ركزت الصحوة الإسلامية المعاصرة على أمور العبادات وهذا أمر مطلوب ، واهتمت بالكثير من المظاهر والشكليات ، وهذا من قبيل الهزل في وقت الجد. وإن المسألة الملحة اليوم هى ضرورة البحث عن مخرج للمسلمين من هذا التخلف الشامل ، وذلك لن يكون إلا باستعادة الوعى بالإسلام وتعاليمه وقيمه بعقل متفتح وإدراك واع بأهداف الإسلام الحضارية.

والصحوة الإسلامية تظل مجرد كلمة خالية من المضمون ما دامت لم تصل إلى مرحلة عودة الوعى بالإسلام. وعودة الوعى هى الحالة التى يمكن أن تكون المنطلق الحقيقى للفهم الشامل للإسلام بوصفه دين العزة والكرامة ، دين التقدم والحضارة، دين العلم والمدنية ، دين الدنيا والآخرة ، دين التوازن بين الجسم والروح ، دين الاعتدال والسماحة ، دين السمو المادى والمعنوى. وبصفة عامة بوصفه دين السلوك المسئول على جميع المستويات الفردية والاجتماعية والدينية. والسلوك المسئول هو دائمًا سلوك حضارى ، والتعاليم التى تنتج هذا السلوك المسئول هى التعاليم التى تدفع معتنقيها إلى صنع الحضارة والمشاركة فيها ، لا بوصفهم مجرد مستهلكين أو متفرجين ، ولكن بوصفهم فاعلين مؤثرين. والتعاليم التى تستطيع أن تصنع ذلك هى تعاليم الإسلام.

إن دينًا بهذا الوصف لا يمكن أن يجعل أمر الحضارة من المسائل الهامشية ضمن اهتماماته ، وإنما يجعلها في قائمة أولوياته ، وهذا ما فهمه المسلمون في السابق ، وبذلك استطاعوا في فترة زمنية قصيرة أن يقيموا أعظم حضارة في

التاريخ. ومن هنا يمكننا مرة أخرى أن نقرر أن الحضارة فريضة إسلامية ، وواجب ديني لا يجوز للمسلمين أن يتخلوا عنه ، بل عليهم أن يجعلوه في قمة أولوياتهم حتى يعودوا مرة أخرى أعزة ، ويستعيدوا مكانهم الريادى ومكانتهم العليا في عالم اليوم.

* * *